القرآن . المصدر الأول للتصوف

بقلم: الدكتور
مصطفى كمال وصفى

زعم الزاعمون أن التصوف فلسفة لاحقة طرأت على حياة الأمة الإسلامية ، بعد أن تأثرت بدراسات الإغريق والفرس والهنود وحكمهم ، وأنه دخيل على الإسلام .

ولكن الحق الذى لا مراء فيه هو أن التصوف هو روح الدين ولبابه وجوهره ، وأن فهمه والسلوك به ، هو الفهم الصحيح للدين ، والسلوك على صراطه المستقيم . وأن القرآن هو مصدره الأول ، وأن الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام هو الصوفى الأول .

فكما نعلم ، فإن الدين عمل وإيمان . وأن التصوف هو منهج الإرشاد إلى الإيمان . فهو يعلم الإنسان كيف يتوب إلى الله ، وكيف يطهر قلبه من المفاسد والحجب ويملؤه إيمانا ويسلك بعد ذلك خالصاً لله ، ويحذره السقطات والمزالق وسوء الخاتمة .

فكيف نقول إن الدين نزل بدون ذلك ، أو أن مناهج الإيمان دخيلة طارئة عليه أو أنه استعارها من الإغريق أو الفرس أو الهنود أو غيرهم . اللهم إلا إن كان القائل غير فاهم للصوفية على حقيقتها ، أو كان ذهنه ملتبساً بغيرها .

وقد اتفق السلف الصالح من أسناد الصوفية وأشياخها أن التصوف لا بد أن يستند إلى القرآن والسنة . وأن كل طريقة خالفت الشريعة ، وكل حقيقة لم تساير أصول القرآن والسنة ، تكون فاسدة لا يعتد بها . بذلك قال الإمام القشيرى ، والإمام أحمد الرفاعى والإمام الغزالى وغيرهم من الثقات .

وإن المتدبر لأحكام القرآن ليراه يدور - فيما يدور به - حول إرساء الأصول الصوفية وإقرارها .

فقد عنى القرآن عناية خاصة بتحليل الإيمان وخصائصه وأسبابه ، وتحليل نقائصه من الكفر والشرك والنفاق ، وبيان أسبابها وصفاتها . وعنى عناية كبرى ببيان دسائس النفس وعجائب القلب . ثم شرح وسائل زيادة الإيمان وتنميته فى النفس ، وضرب الأمثلة المستفيضة من القصص الطويل الذى يتعظ به السالك وينصح المتجه إلى الله ، فيريه معنى سوء الخاتمة بأمثلة واضحة ، ومعنى الغرور وعاقبة نكث العهد والتلاعب به ، ويريه أحوال الصالحين والمؤمنين ، وأحوال الطالحين والمجرمين . مما استخلص منه الصوفية مناهجهم وأشرقت به نفوسهم .

* * *

غير أن القرآن يعمد فى كثير من الأحيان إلى التورية ، حتى ليخفى الأمر على غير من هم أهل لفهمه . فهو كثيراً ما يعمد إلى المجاز حيث يظن القارئ أنه يقصد إلى الحقيقة . كتوريته أحيانا القلب بالقرية أو البيت ، وعُمّاره بالصالحين والكافرين . وتوريته الجسد بالأرض ، ونزول الرحمة عليها بنزول الماء ، وغير ذلك مما يدركه العابد فى خلواته والمتذوق فى جلواته .

وأحياناً أخرى يعمد إلى الحقيقة حيث يظن أنه يقصد المجاز ، كذكره عذاب الموت وما يصحبه من الكشف والندم ، وذكره عذاب الآخرة أو نعيمها وصفات النار والجنة . فيظن بعض الغافلين أن ذلك تمثيلا وليس تحصيلا . فيفوته المعنى ولا تنطبع نفسه به . فيقرأ وهو غافل وتزيده قراءته خساراً .

ولا شك أن مجال الحديث لا يتسع للتعرض لما حفل به القرآن من معانى الإيمان . بل جمع ذلك أعلى من مستوى العقول . ويكفى أن نشير إلى أطراف من ذلك من قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب . وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون . »

فجمع فى ذلك إيماناً بالغيب ، ونفقه فى سبيل الله ، وعملا صالحاً ، يعتبر به

العامل صادقاً متقياً . وصادق قوله : « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » . وإن حال المؤمن على ما هو عليه إلا أن يغير مافى قلبه إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وحذر من الإيمان بعد فوات الأوان بقوله . « يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » .

وبين أن الإيمان الخالص هو البرىء من الشرك بقوله : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » . أى بشرك كما جاء فى الحديث لقوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » وإن الناس واقعون فى ذلك لقوله : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

ووصف حال غير المؤمنين وبين أنهم دون الأنعام . وأنه لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . وإنه : « فلما نسوا حظاً مما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » .

وبين أن أصل الإنسان هو الإيمان بقوله : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » وبين ما طرأ عليه من الحجب بقوله : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا » وإن « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات » . وإن منهم عدواً لنا .

ثم إن الله يحذرهم أن تنطبع قلوبهم بالآثام حتى لا ترين وتصدأ . بقوله : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . وقوله : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ، لضرر ذلك على القلب وصفائه وتحوله من الإيمان إلى الغفلة .

بل نهى عن الغلو فى الدين بقوله : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبلُ وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » . وقوله : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » . ومدح أمتنا بأنها أمة وسطا .

ولا شك فى أن هذه الآيات وأمثالها ، التى تفتح أبوابا مستفيضة لدراسة الإيمان ، هى الوعاء الشامل والدعامة الكبرى التى ينهض على التصوف ومناهجه .

* * *

ومما تعرض له القرآن ، واقتبسه الصوفية فى مناهجهم ، بيان أسباب السلوك وطرائقه .

فبين أهمية الصحبة الصالحة بقوله : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » . وقوله : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » .

وبين فضائل قيام الليل بقوله : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » . وقوله : « قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » . وقوله : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل » .

ومدحه للقائمين بقوله : « الصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » . وقوله : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

ثم إن القرآن قد رسم عدة وسائل للذكر والاستغفار والأوقات التى يستحب بها ، ومن هذه المناهج اقتبس الصوفية طرقهم .

ومن ذلك قوله تعالى : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى (طه) » « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود (ق) » .

وقوله فى وصف المتقين : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون » (الذاريات) .

وقوله : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم » . (الطور)

وقوله : « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » (الدهر) .

وكذلك حفل القرآن بالأدعية الصالحة التى اقتبسها الصوفية أوراداً كقوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا أصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

وقوله : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لايخلف الميعاد» .

وقوله : « ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » .

(البحث مستمر)

من أدب الإسلام

ذهب سلمان الفارسى إلى قبيلة كنده ، فخطب امرأة منها واتفق معهم على يوم الزفاف ، وحين زُفَّ مشى معه أصحابه حتى أوصلوه إلى بيت الزوجية ، ولما أصبح أقبل عليه أصحابه وجلسوا إليه وباركوا له ، ثم سألوه ، هيه يا أبا عبد الله كيف وجدت أهلك ؟ فلم يرد عليهم وإنما أعرض عنهم ، فقالوا له مرة ثانية، كيف وجدت أهلك ؟ فالتفت إليهم مغضباً وقال :

إنما جعل الله عز وجل الستور والأبواب ، لتوارى ما وراءها حسب امرىء منكم أن يسأل عما ظهر له ، فأما ما غاب عنه فلا يسألن عن ذلك . فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «المتحدث عن ذلك كالحمارين يتسافدان فى الطريق » ، فسكت القوم ولم يجيروا جوابا .